من الكافر ؟

السؤال : هل هناك كافر حقًّا وكافر غير ذلك ؟

الجواب : يقول الحق سبحانه : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء : ١٥١] .

و ﴿ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ مقصود بهم أن حقيقة الكفر موجودة فيهم ؛ لأننا قد نجد من يقول : وهل هناك كافر حقًّا ، وكافر غير ذلك ؟

نعم . فالذي لا يؤمن بكل رسالات السماء قد يملك بعضًا من العذر ، لأنه لم يجد الرسول الذى يبلّغه[1] .

---

(١) قال القرطبي فى التفسير : قوله تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ هو نصب على البدل من ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ ﴾ ويجوز أن يكون على إضمار فعل؛ ويجوز نصبه على الحال؛ أي كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده رسلا . ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ فيقولوا : ما أرسلت إلينا رسولا ، وما أنزلت علينا كتابا ؛ وفى التنزيل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ [طه : ١٣٤] وفى هذا كله دليل واضح أنه لا يجب شىء من ناحية العقل.

وقال فى موضع آخر : وأكبر الإعذار إلى بني آدم بعثة الرسل إليهم لتتم حجته عليهم، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . وقال : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٧] قيل : هم الرسل . ابن عباس : هو الشيب . فإنه يأتى فى سن الاكتهال، فهو علامة لمفارقة سن الصبا. وجعل الستين غاية الإعذار لأن الستين قريب من معترك العباد، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله، وترقب المنية ولقاء الله؛ ففيه إعذار بعد إعذار. الأول : بالنبى عليه السلام ، والثانى : بالشيب ؛ وذلك عند كمال الأربعين؛ قال اللّه تعالى : ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

فذكر عز وجل أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نعم اللّه عليه وعلى والديه ويشكرها . قال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا، وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتى يأتى لأحدهم أربعون سنة ؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس . =

obeikandl.com

أما الذى جاءه رسول وله صلة إيمانية به ؛ وهذه الصلة الإيمانية لحمته بالسماء بوساطة الوحى ، فإن كفر هذا الإنسان مؤكد : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾(١) .

= وقال فى موضع آخر :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ أى : لم نترك الخلق سدى، بل أرسلنا الرسل . وفى هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ، خلافا للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبح ويحسن ويبيح ويحظر .

والجمهور على أن هذا فى حكم الدنيا ؛ أي أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار .

وقالت فرقة : هذا عام فى الدنيا والآخرة، لقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا ۝ ﴾ [الملك] .

قال ابن عطية: والذى يعطيه النظر أن بعثه آدم عليه السلام بالتوحيد وبث المعتقدات فى بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله ، ثم تجدد ذلك فى زمن نوح عليه السلام بعد غرق الكفار. وهذه الآية أيضا يعطي احتمال ألفاظها نحو هذا فى الذين لم تصلهم رسالة، وهم أهل الفترات الذين قد قدر وجودهم بعض أهل العلم. وأما ما روي من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح ، ولا يقتضي ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف .

قال المهدوى : وروي عن أبي هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصم ؛ فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه فى الدنيا ، وتلا الآية ؛ رواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة، ذكره النحاس .

قلت : هذا موقوف ، وسيأتي مرفوعا فى آخر سورة [طه] إن شاء الله تعالى ؛ ولا يصح . وقد استدل قوم فى أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى ؛ وهذا صحيح ، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل ، والله أعلم .

(١) قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٥٠]

روى ابن جرير فى التفسير [٨٤٧٢] عن ابن جريج قال ، قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : اليهود والنصارى : آمنت اليهود بعزير وكفرت بعيسى، وآمنت النصارى بعيسى وكفرت بعزير ، وكانوا يؤمنون بالنبى ويكفرون بالآخر . ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : دينا يدينون به لله .

فقال جل ثناؤه لعباده ، منبها لهم على ضلالتهم وكفرهم : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ =

ونلحظ أن الحق ساعة يتكلم عن الكافرين لا يعزلهم عن الحكم والجزاء الذى ينتظرهم ، بل يوجد الحكم معهم فى النص الواحد ، قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ وقد جاء هنا بالجزاء على الكفر ملتصقًا بالكفر ، فسبحانه قد جهز بالفعل العذاب المهين وأعَدّه للكافرين ولم يؤجل أمرهم أو يسوّفه .

❁ ❁ ❁

= يقول : أيها الناس هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم هم أهل الكفر بى ، المستحقون عذابي والخلود فى ناري حقا، فاستيقنوا ذلك ، ولا يشككنكم فى أمرهم انتحالهم الكذب ودعواهم أنهم يقرون بما زعموا أنهم به مقرون من الكتب والرسل ، فإنهم فى دعواهم ما ادعوا من ذلك كذبة .

وذلك أن المؤمن بالكتب والرسل، هو المصدق بجميع ما فى الكتاب الذى يزعم أنه به مصدق وبما جاء به الرسول الذى يزعم أنه به مؤمن ، فأما من صدق ببعض ذلك وكذب ببعض ، فهو لنبوة من كذب ببعض ما جاء به جاحد ، ومن جحد نبوة نبي فهو به مكذب . وهؤلاء الذين جحدوا نبوة بعض الأنبياء وزعموا أنهم مصدقون ببعض ، مكذبون من زعموا أنهم به مؤمنون ، لتكذيبهم ببعض ما جاءهم به من عند ربهم ، فهم بالله وبرسله - الذين يزعمون أنهم بهم مصدقون، والذين يزعمون أنهم بهم . مكذبون - كافرون ، فهم الجاحدون وحدانية اللّه ونبوة أنبيائه ، حق الجحود المكذبون بذلك حق التكذيب ، فاحذروا أن تغتروا بهم وببدعتهم ، فإنا قد أعتدنا لهم عذابا مهينا .

وقال القرطبي فى التفسير : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ ﴾ لما ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب ، اليهود والنصارى ؛ إذ كفروا بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، وبين أن الكفر به كفر بالكل ؛ لأنه ما من نبي إلا وقد أمر قومه بالإيمان بمحمد صلى اللّه عليه وسلم وبجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ومعنى ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أى : بين الإيمان بالله ورسله؛ فنص سبحانه على أن التفريق بين اللّه ورسله كفر؛ وإنما كان كفرا لأن اللّه سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل ، فإذا جحدوا الرسل ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التى أمروا بالتزامها؛ فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية . وكذلك التفريق بين رسله فى الإيمان بهم كفر .

وقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ تأكيد يزيل التوهم فى إيمانهم حين وصفهم بأنهم يقولون نؤمن ببعض، وأن ذلك لا ينفعهم إذا كفروا برسوله؛ وإذا كفروا برسوله فقد كفروا به عز وجل، وكفروا بكل رسول مبشر بذلك الرسول؛ فلذلك صاروا الكافرين حقا.

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ ﴾ يقوم مقام المفعول الثانى لأعتدنا؛ أي أعتدنا لجميع أصنافهم ﴿ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ أى : مذلا .

obeikandl.com

جزاء الذين يحاربون اللَّه

السؤال : ما جزاء الذين يحاربون اللَّه ويسعون بالإفساد فى الأرض ؟

الجواب : يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النساء : ١٥١] .

أول شىء فى الحرب هو الاستيلاء ؛ فمعنى أن يحارب قوم قومًا غيرهم أى : يرغبون فى الاستيلاء على خيرات أو ممتلكات الطرف الآخر . فكيف يحارب قومٌ اللَّه وهو غيب ؟ وأول حرب للَّه فى محاولة الاستيلاء على سلطانه ، وهو تشريعه . فإن حاولت أيها الإنسان أن تُشرِّع أنت على غير منهج اللَّه فأنت تريد أن تستولى على حق اللَّه فى التشريع . وهذه أول حرب للَّه[١] .

---

(١) قال القرطبى فى التفسير : اختلف الناس فى سبب نزول هذه الآية ؛ فالذى عليه الجمهور أنها نزلت فى العرنيين ؛ روى الأئمة واللفظ لأبى داود عن أنس بن مالك : أن قوما من عكل - أو قال من عرينة - قدموا على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فاجتووا المدينة ؛ فأمر لهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا ، فلما صحوا قتلوا راعى النبى صلى اللَّه عليه وسلم واستاقوا النعم ؛ فبلغ النبى صلى اللَّه عليه وسلم خبرهم من أول النهار فأرسل فى آثارهم ؛ فما ارتفع النهار حتى جيء بهم ؛ فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم وألقوا فى الحرة يستسقون فلا يسقون . قال أبو قلابة : فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا اللَّه ورسوله[١] . وفى رواية : فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم ؛ وفى رواية : فبعث رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فى طلبهم كافة فأتى بهم قال : فأنزل اللَّه تبارك وتعالى فى ذلك : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي =

---

(١) رواه أبو داود [٤٣٦٤] ، وابن حبان [٤٤٦٩] .

openkanal.com

والذين يحاربون اللَّه أهُمُ الذين يريدون أن يستولوا على ملك اللَّه ؟

= ﴿ ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية . وفى رواية قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشا حتى ماتوا [١] .

وفي البخارى قال جرير بن عبد اللَّه فى حديثه : فبعثني رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فى نفر من المسلمين حتى أدركناهم وقد أشرفوا على بلادهم ، فجئنا بهم إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. قال جرير : فكانوا يقولون الماء ، ويقول رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « النار » .

وقد حكى أهل التواريخ والسير : أنهم قطعوا يدي الراعي ورجليه ، وغرزوا الشوك فى عينيه حتى مات، وأدخل المدينة ميتا . وكان اسمه يسار وكان نوبيا. وكان هذا الفعل من المرتدين سنة ست من الهجرة .

وفي بعض الروايات عن أنس : أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم [٢] .

وروي عن ابن عباس والضحاك : أنها نزلت بسبب قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا فى الأرض .

وفي مصنف أبي داود عن ابن عباس قال : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ نزلت هذه الآية فى المشركين فمن أخذ منهم قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذى أصابه [٣] .

وممن قال : إن الآية نزلت فى المشركين عكرمة والحسن، وهذا ضعيف يرده قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الإسلام يهدم ما قبله » [٤] أخرجه مسلم ؛ والصحيح الأول لنصوص الأحاديث الثابتة فى ذلك .

وقال مالك والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأى : الآية نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع السبيل ويسعى فى الأرض بالفساد .

قال ابن المنذر : قول مالك صحيح ، وقال أبو ثور محتجا لهذا القول : وفى الآية دليل على أنها نزلت فى غير أهل الشرك ؛ وهو قوله جل ثناؤه : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : ٣٤] وقد أجمعوا على أن أهل الشرك إذا وقعوا فى أيدينا فأسلموا : فإن دماءهم تحرم ؛ فدل ذلك على أن الآية نزلت فى أهل الإسلام . وحكى الطبري عن بعض أهل العلم : أن هذه الآية نسخت فعل النبى صلى اللَّه عليه وسلم في =

(١) رواه أبو داود [٤٣٦٧] ، والترمذى [٧٢] وقال الألباني : صحيح .
(٢) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال [٤٣٦٣] .
(٣) رواه أبو داود [٤٣٧٢] وقال الألباني : حسن .
(٤) رواه مسلم [١٢١/ ١٩٢] عن عمرو بن العاص رضى اللَّه تعالى عنه .

لا ؛ لأن يد اللَّه فى مُلكه أزلاً ، وستبقى أبدًا وسبحانه لن يسلّمه لأحد من

= العرنيين ، فوقف الأمر على هذه الحدود .

وروى محمد بن سيرين قال : كان هذا قبل أن تنزل الحدود؛ يعنى حديث أنس ؛ ذكره أبو داود .

وقال قوم منهم الليث بن سعد : ما فعله النبى صلى اللَّه عليه وسلم بوفد عرينة نسخ ؛ إذ لا يجوز التمثيل بالمرتد .

قال أبو الزناد : إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لما قطع الذين سرقوا لقاحه وسمل أعينهم بالنار عاتبه اللَّه عز وجل فى ذلك ؛ فأنزل اللَّه تعالى فى ذلك : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ ﴾ الآية . أخرجه أبو داود [(١)] .

قال أبو الزناد : فلما وعظ ونهى عن المثلة لم يعد . وحكى عن جماعة أن هذه الآية ليست بناسخة لذلك الفعل؛ لأن ذلك وقع فى مرتين ، لا سيما وقد ثبت فى صحيح مسلم وكتاب النسائى وغيرهما قال : إنما سمل النبى صلى اللَّه عليه وسلم أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاة [(٢)]؛ فكان هذا قصاصا ، وهذه الآية فى المحارب المؤمن .

قلت : وهذا قول حسن ، وهو معنى ما ذهب إليه مالك والشافعى ؛ ولذلك قال اللَّه تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ومعلوم أن الكفار لا تختلف أحكامهم فى زوال العقوبة عنهم بالتوبة بعد القدرة كما تسقط قبل القدرة. والمرتد يستحق القتل بالردة نفسها ـ بدون المحاربة – ولا ينفى ولا تقطع يده ولا رجله ولا يخلى سبيله بل يقتل إن لم يسلم ، ولا يصلب أيضا؛ فدل أن ما اشتملت عليه الآية ما عنى به المرتد. وقال تعالى فى حق الكفار : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ . وقال فى المحاربين : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ الآية ؛ وهذا بين . وعلى ما قررناه فى أول الباب لا إشكال ولا لوم ولا عتاب إذ هو مقتضى الكتاب؛ قال اللَّه تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة : ١٩٤] فمثلوا فمثل بهم ، إلا أنه يحتمل أن يكون العتاب إن صح على الزيادة فى القتل ، وذلك تكحيلهم بمسامير محماة وتركهم عطشى حتى ماتوا ، واللَّه أعلم . وحكى الطبري عن السدى : أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم لم يسمل أعين العرنيين وإنما أراد ذلك ؛ فنزلت الآية ناهية عن ذلك ، وهذا ضعيف جدا ؛ فإن الأخبار الثابتة وردت بالسمل .

وفى صحيح البخارى : فأمر بمسامير فأحميت لهم [(٣)] . ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم هذه الآية مترتب فى المحاربين من أهل الإسلام وإن كانت نزلت فى المرتدين أو اليهود .

وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ استعارة ومجاز ؛ إذ اللَّه سبحانه =

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه مسلم [١٦٧١/ ١٤] ، والنسائى فى المجتبى [٧/ ١٠٠/ ٤٠٤٣] عن أنس .

(٣) سبق تخريجه .

عباده . فعلى ماذا إذن يريدون الاستيلاء ؟ إنهم يريدون تزييف تشريعات

= وتعالى لا يحارب ولا يغالب لما هو عليه من صفات الكمال، ولما وجب له من التنزيه عن الأضداد والأنداد . والمعنى : يحاربون أولياء الله ؛ فعبر بنفسه العزيزة عن أوليائه إكبارا لإذايتهم ، كما عبر بنفسه عن الفقراء الضعفاء فى قوله : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة : ٢٤٥] . حثا على الاستعطاف عليهم ؛ ومثله فى صحيح السنة « استطعمتك فلم تطعمنى » (١).

ولا خلاف فى أن الحرابة يقتل فيها من قتل وإن لم يكن المقتول مكافئا للقاتل ؛ وللشافعي قولان : أحدهما : أنها تعتبر المكافأة لأنه قتل فاعتبر فيه المكافأة كالقصاص ؛ وهذا ضعيف ؛ لأن القتل هنا ليس على مجرد القتل وإنما هو على الفساد العام من التخويف وسلب المال ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا ﴾ فأمر تعالى بإقامة الحدود على المحارب إذا جمع شيئين محاربة وسعيا فى الأرض بالفساد ، ولم يخص شريفا من وضيع ، ولا رفيعا من دنيء .

وقال ابن جرير الطبري فى التفسير بعد أن عدد الأقوال فى سبب نزول الآية :

وأولى الأقوال فى ذلك عندي أن يقال : أنزل الله هذه الآية على نبيه صلى الله عليه وسلم معرفة حكمه على من حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فسادا ، بعد الذى كان من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرنيين ما فعل .

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصواب فى ذلك، لأن القصص التى قصها الله جل وعز قبل هذه الآية وبعدها من قصص بنى إسرائيل وأنبائهم ، فأن يكون ذلك متوسطا منه يعرف الحكم فيهم وفى نظرائهم ، أولى وأحق . وقلنا : كان نزول ذلك بعد الذى كان من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرنيين ما فعل لتظاهر الأخبار عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك. وإذ كان ذلك أولى بالآية لما وصفنا ، فتأويلها : من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو سعى بفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون، يقول : لساعون فى الأرض بالفساد ، وقاتلو النفوس بغير نفس وغير سعي فى الأرض بالفساد حربا لله ولرسوله، فمن فعل ذلك منهم يا محمد ، فإنما جزاؤه أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض .

فإن قال لنا قائل : وكيف يجوز أن تكون الآية نزلت فى الحال التى ذكرت من حال نقض كافر من بني إسرائيل عهده ، ومن قولك إن حكم هذه الآية حكم من الله فى أهل الإسلام دون أهل الحرب من المشركين ؟ قيل : جاز أن يكون ذلك كذلك ، لأن حكم من حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فسادا من أهل ذمتنا وملتنا واحد ، والذين عنوا بالآية كانوا =

(١) رواه مسلم [٢٥٦٩/ ٤٣] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

obeikandl.com

الله ، بينما الحق سبحانه هو المُشرِّع وحده . والتشريع -كما قلنا - هو قانون صيانة للصنعة . إذن : فلماذا لا نترك خالق الإنسان ليضع القواعد التى تصون الإنسان ؛ لذلك فأول افتئات يفعله الناس أنهم يشرّعون لأنفسهم ؛ لأن قانون صيانة الإنسان يضعه خالق الإنسان ، فإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان - الذى هو منه - قانون صيانة نقول له : إنك تستولي على حق الله .

= أهل عهد وذمة ، وإن كان داخلا فى حكمها كل ذمي وملى ، وليس يبطل بدخول من دخل فى حكم الآية من الناس أن يكون صحيحا نزولها فيمن نزلت فيه .

وقد اختلف أهل العلم فى نسخ حكم النبى صلى الله عليه وسلم فى العرنيين ، فقال بعضهم : ذلك حكم منسوخ ، نسخه نهيه عن المثلة بهذه الآية ، أعني بقوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا . . . ﴾ الآية ، وقالوا : أنزلت هذه الآية عتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما فعل بالعرنيين .

وقال بعضهم : بل فعل النبى صلى الله عليه وسلم بالعرنيين حكم ثابت فى نظرائهم أبدا، لم ينسخ ولم يبدل . وقوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . . ﴾ الآية ، حكم من الله فيمن حارب وسعى فى الأرض فسادا بالحرابة . قالوا : والعرنيون ارتدوا وقتلوا وسرقوا وحاربوا الله ورسوله ، فحكمهم غير حكم المحارب الساعي فى الأرض بالفساد من أهل الإسلام والذمة .

obeikandl.com

قطع يد السارق

السؤال : **كيف يمكن الرد على المستشرقين والمتشدقين بالرأفة والرحمة وحقوق الإنسان فى مسألة عقوبة قطع يد السارق من منظور الإسلام ؟**

الجواب : إن المتشدقين بالمظهرية الحضارية يرون فى قطع يد السارق تشويهًا للإنسان . وينسون أن يد السارق أثيمة وآثمة . . ولنا فى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أسوة حسنة عندما قال : « إنما أهلك الذين قبلكم ، كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وَايْمُ اللَّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[١] .

● لماذا قال الرسول صلى اللَّه عليه وسلم ذلك وهو نبي الرحمة ؟

إن اللَّه سن العقوبة لا لتقع الجريمة ولكن ليمنع وقوع الجريمة .

إن إشاعة الفوضى فى المجتمع بالسرقات واستنزاف أموال الناس بالتقرب من السلطان ، أو استغلال الجاه ، مسألة تفسد على المسلمين أمور حياتهم .

لذلك فعلى ولى الأمر أن يقطع يد السارق مهما كان . . فلا حماية لأحد بنفوذ أو جاه . . ولا حماية لأحد من قانون شرعه اللَّه .

إن من يعارض قطع يد السارق هو واحد من اثنين : إما أنه لص سارق ويريد أن يحمي نفسه ويستمر فى السرقة ، أو كاره لحدود اللَّه وتعاليمه . . وإلا فلماذا يعارض قطع يد السارق ؟

إن الذى لا يفكر فى السرقة ويرضى بمنهج اللَّه ، لن يرتجف لو قال اللَّه اقطعوا رقبة السارق .

---

(١) رواه البخارى [٦٧٨٨] ومسلم [٨/١٦٨٨] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها .

إن اللّه لم يشرع القوانين أو يجرم الأفعال بغرض أن يعاقب أحدًا بذاته ، ولكن ليمنع آثار الجريمة من الإضرار بصالح المجتمع كله .

إن الإنسان عندما يعيش فى مجتمع يرتفع فيه شأن اللصوص ، يشعر بالضياع والمهانة ويفقد القدرة على أن ينتج وأن يعمل . . لذلك شرع الحق سبحانه قطع يد السارق حتى يجعل المجتمع آمنا ، فينطلق كل فرد فيه للعمل والجد والاجتهاد فى عمارة الأرض وطلب الرزق .

opeikandl.com

القرآن المهيمن

السؤال : **نزل القرآن مهيمنًا على الكتب السابقة كما جاء فيه . . فما دلالة هذه الهيمنة وما آثارها ونتائجها . . ؟**

الجواب : كلمة « مهيمن » تدل على أن الكتب السابقة قد يتناولها التحريف . . فلو قلنا : إنه مصدق لما بين يديه من الكتب فقط ، لكان مصدقًا لما أثبت هو أن فيه تحريفًا .

أما قوله : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٤٨] فيدل على أن ما اختلف فيه مع القرآن فالحجة فيه للقرآن .

والأمر فى منتهى اليسر العقلى . . لأن الكتب التى نزلت على الرسل السابقين كتب مناهج فقط ، تحمل المنهج الإلهى للرسول ، ليبلغه بلغة من عنده ، كما فعل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فى أن بلغنا بواسطة الحديث النبوى . أي إن الكتب السابقة تناولت معنى المنهج . . وجاءت الرسل فبلغوا معانى المنهج . . وجاء الحواريون حولهم فنقلوا بلغتهم ما فهموه من المنهج .

إذن . . فالنص فى الكتب السابقة غير موثق من اللَّه ، لأن المعانى هي التى نقلت إليهم ، وما دام الأمر كذلك فنقل المناهج القديمة مهمة تكليفية . . ومعنى مهمة تكليفية : أن اللَّه كلف من علم المنهج فى الكتب السابقة أن يبلغه . . وما دامت المهمة تكليفية فالتكليف فى ذاته عرضة لأن يطاع وأن يعصى .

وما دام الأمر كذلك فأتباع الأديان السابقة عصوا ربهم ونسوا حظاً مما ذكروا به ، وكتموا بعض ما لم ينسوه ، وما لم يكتموه حرفوا فيه ، ولوُوا ألسنتهم به وليتهم اقتصروا عند هذا الحد . . ولكنهم زادوا من عندهم شيئًا ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٧٨] .

إذن . . فالنص فى الكتب السابقة غير موثق . . لماذا ؟

لأن النص فى الكتب السابقة كان نص منهج فقط . . بينما النص فى الإسلام ليس منهجًا فقط ، وإنما منهج ومعجزة . . والمعجزة من صنع اللَّه . . فليس لبشر أن ينسى منها شيئًا ، ولا أن يكتم منها شيئًا ، ولا أن يحرف منها شيئًا ، أو يلوي لسانه بشىء ، أو يزيد فيها شيئًا : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة] .

فالنص إنما حوفظ عليه لا لأنه منهج فقط ، ولكن لأنه معجزة أيضا . . والمعجزة من صنع اللَّه ، لا دخل لبشر فيها مطلقًا . . ولذلك ستبقى إلى آخر الدهر . . لأن الكتب السابقة كلف اللَّه أهلها أن يحافظوا عليها ، والتكليف عرضة لأن يطاع ولأن يعصى ، وقد عصوا . . ومن هنا لم يأمن اللَّه البشر على معجزة النبى محمد صلى اللَّه عليه وسلم واقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

ومعنى : ﴿ ٱسْتُحْفِظُوا۟ ﴾ أمرهم تكليفًا أن يحافظوا عليه ؛ أما القرآن فلم يستحفظ اللَّه عليه أحدًا ، بل قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] . فالحفظ من الذى أنزل . . ولكن الكتب السابقة كان الاستحفاظ مهمة من أنزل عليهم وإليهم . . لذا لم يطع من أنزل إليهم . . فلم يأمن اللَّه بشرًا على القرآن ، لأنه معجزة ولأنه منهج .

إذن . . فهيمنة القرآن على المناهج هي التى جعلته لا يتعرض لما جاء به جديدًا فى التكاليف ولكنه تعرض للمسألة الكونية من ألفها إلى يائها . . فمن مهمة الإنسان . . ومن كيفية خلق الإنسان . . ومن الحركة التى تأتى بها الروح فى مادة الإنسان . . ومن حركة القيم التى يأتى بها المنهج فى الإنسان . . كل ذلك أراد القرآن أن يحققه حتى يتحقق له أنه المهيمن على كل كتب السماء .

ولو أن المسألة كانت وصلة وحلقة من حلقات الإنزال السماوى لاكتفى اللَّه فى القرآن بأن يجيء بالشاهد ، ولكنه جاء بالمسألة من أساسها .

وزر الضلال .. ووزر الإضلال

السؤال : هل هناك تعارض بين قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ . وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا »[١] ؟

الجواب : الحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام : ١٦٤]

ويقول سبحانه : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥] .

بعض الناس يظن أن الآيتين بينهما تعارض .. نقول لا .. من يرتكب إثمًا يحاسب عليه .. ومن يضل غيره بفتوى غير صحيحة يُحِلّ له بها ما حرم الله فإنه يحمل معاصيه ومعاصى من أضل .. فيكون له وزر لأنه ضل فى نفسه ، ووزر لأنه أضل غيره .. بل وأكثر من ذلك .. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا »[٢] .

ولابد أن نتنبه إلى خطورة الفتوى فى الدين بغير علم .. الفتوى فى

---

(١) رواه مسلم [١٦/٢٦٧٤] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

(٢) سبق تخريجه .

الدنيا أقصى ما يمكن أن تؤدى إليه هو أن تجعلك تخسر صفقة .. لكن الفتوى فى الدين ستدوم عمرًا طويلاً .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة : ٧٨] .. والظن كما قلنا هو نسبة راجحة ولكن غير مؤكدة .. وإذا كان التمنى كما ورد فى اللغة هو القراءة .. فهؤلاء الأُمِّيون لا يعلمون الكتاب إلا قراءة لسان بلا فهم ولذلك قال اللَّه سبحانه وتعالى عن اليهود : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة : ٥] .

وهكذا نرى أن هناك صنفًا يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئًا .. واللَّه جل جلاله قال إن مثله كالحمار .. لأن الحمار مهمته أن يحمل ما يحمل معرفته .. ولكن الإنسان ليست مهمته أن يحمل ما يجهل .. لابد له أن يقرأ الكتاب ويعلم ما أمر به اللَّه تعالى فيه فيتبعه[١] .

---

(١) قال الشيخ محمد متولي الشعراوي فى كتاب المناعة الإيمانية : من مصلحة أولياء أمور المسلمين لصالح إسلامهم أن يعرضوا على من يتولون تربيتهم وتنشئتهم الفكر المناقض للإسلام ، حتى لا يدعوا فرصة للفكر المهاجم أن يهاجم من خلفهم ؛ لأنه إن هاجم من خلفهم هاجم بشراسة ، وهاجم وليس معه دليل نقضه .

وقلنا : إن هذه القضية نصنعها نحن فى أمورنا المادية حين نتخوف على أبنائنا مرضًا من الأمراض الفتاكة فقبل أن يأتى إليهم بشراسته نأتى بالميكروب ونضعه ، ولكنا نضعه فى درجة خاملة ، حتى نُربى فى الجسم مناعة إن جاء هذا الميكروب يستطيع بالدُّربة والرياضة أن يقف أمام الداء .

وكثير من الناس يستنكفون أن يذكروا ذلك لأبنائهم وهم يحاولون بذلك إبعادهم - وتلك ميزة أيضًا - ولكنا نقول : إنه ليس من الممكن الآن أن نحجب عن الناشئة مصادر المعلومات التى يعلمون بها ، فوسائل الإعلام الآن وسائل شتى ، ولم تعد تقتصر على أفواه الآباء وأفواه الأُمهات ، ولا مناهج التدريس ، بل هناك وسائل متعددة ، فإن احتطت أن لا تفِد هذه الوافدة على آذان أبنائك الذين تقوم بتربيتهم ، فإنك لا تستطيع .

وقلنا : إن مما تعرضت له الكتب التى وصلتنا أيضا أنهم يقولون : إن القرآن الذى يرفعونه « أى : المسلمون » إلى مرتبة التقديس وأنه من الإله الحكيم ، يقولون « أى : كتبة هذه الكتب » بأنه ليس من الإله ولا شىء لأن الإله لا يمكن أن يتضارب فى قوله ، والقرآن متضارب فى كثير من آياته ، وعرضوا عشر آيات ظاهرها بزعمهم التضارب ؛ لأنهم يعرضونها بغير رياضة العربى ذى الملكة الذى يفهم الأسلوب ويفهم مراميه .

فأول ما عرضوا ، عرضوا قضية قول الحق سبحانه وتعالى ليشككوا فى القرآن ذاته ، وهي=

= قول اللّه تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ قالوا : تلك قضية قرآنية والمخطوط اسمه : « سفر البرهان فى متناقضات القرآن » ، فقالوا :

إن القرآن يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ثم يسهو - هكذا عبارتهم لعنهم اللّه - ثم يسهو محمد أنه قال هذه الآية فينطلق لسانه بآية أخرى تناقض هذه الآية : ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ [النحل : ٢٥] ، فقال : هذا يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ثم يُحملهم أوزارًا على أوزارهم ! .

هؤلاء معذورون لأنهم لم يتمرسوا بفهم الأسلوب العربى ، أو هم فاهمون ولكنهم يحاولون أن يدخلوا على الناس بظاهرية الدليل ، لأنهم سيخاطبون ناشئة ، هذه الناشئة قد لا يكون عندها بصر فى أساليب اللغة .

فنقول لهم : نعم ، لا تضارب فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ لأن الدين الإسلامى دين ذاتى ، ذاتى بمعنى : أن الإنسان لا يعاقب إلا عن فعل فعله باختياره وغير مُكره عليه فى زمن يكون التكليف فيه موجودًا .

والتكليف يكون فى البالغ العاقل وله شروطه الخاصة به ؛ مما يدل على احتياطات التشريع الإسلامى فى قضية الجزاء ومنها :

أولاً : لم يُكلف إلا مَن نضج عقله ، وآية نضج العقل : استكمال البنية الإنسانية بالبلوغ . هذه واحدة ؛ لأنه لو كُلِّف قبل ذلك ثم طرأ عليه البلوغ ، والبلوغ له ظاهرة جنسية عارمة ؛ ربما قال : إن هذه لم تكن عندى ساعة تعاقدت على الإيمان ، وجدت فى جسمى أشياء .

فنقول له : لا ، إذا تنضج .

ونحن عندنا : النضج حتى فى الحيوان وحتى فى النبات ، النضج فى كل شىء هو : أن يقدر الإنسان بذاتيته أو الكائن الحى بذاتيته على أن ينجب مثله . هذا هو النضج ، وهذا هو البلوغ .

ولذلك من رحمة اللّه تعالى بنا من أجل بقاء الأنواع التى تخدمنا أن الثمار التى نأكلها - كل الثمار التى نأكلها - هي فى أصل تكوينها لحماية البذرة التى تبقى نوع الثمرة . لا تنضج ولا تكون حلوة مشتهاة إلا إذا تم نضج البذرة فيها .

فأنت - مثلاً - إذا شققت بطيخة ، إن وجدت - لبها - لا زال أبيض ، تجدها ليست حلوة الطعم . . لماذا ؟ لأن البذرة التى تنجب مثلها لا زالت لم تكتمل ، ولكن إذا وجدت بذرتها سوداء يكون قد اكتمل نضجها ، وتجد البطيخة حلوة الطعم شهية .

إذن . . حَمَىٰ اللّه بقاء النوع بأن الثمرة لا تحلو لمقتطفها إلا إذا نضجت بذرتها .

كذلك الإنسان ، لا يمكن أن ينضج إلا إذا كانت عنده القدرة الذاتية على إبقاء نوعه وهذا هو البلوغ كما نقول . فهنا يأتى التكليف .

ثانيًا : أن يكون مختارًا ، فإذا أكرهته قوة أقوى منه على الفعل يُرفع عنه التكليف . =

obeikandl.com

= **ثالثًا** : أن تكون أداة الاختيار عنده بين البديلات سليمة : أى : عاقل .
فما دام عنده هذا الاحتياط حتى يُرتب الجزاء فمعناه أنه متحر للعدالة .
وما دام متحريا للعدالة ؛ فأول شيء أننى لا أحمله وزر سواه .
فأنا أشترط فيه هو نفسه أشياء فى ذاته حتى أضمن له عدالة الجزاء ، لا آتى له بوزر لكن لاحظ أن من أعمال الإنسان فى الوزر .. الوزر الذى يفعله - صحيح - ولكن الوزر الذى يفعله قد يظهر أثر فعله فى غيره . فالذى يضل يضل بذاته ، من غير أن يتعدى ضرره إلى غيره .
ولكنه حين يُريد أن ينقل ضلاله إلى الغير ، صار له عملان :
الأول : أنه ضل فى ذاته .
وعمل آخر هو : أنه حاول إضلال غيره .
فحين يحاول إضلال غيره يكون عملاً جديدًا .
إذن .. عندما يحمل وزره : أى : وزر ضلاله فى ذاته .
ويحمل أوزارًا مع أوزار أعماله فى أنه أضل الغير .
ففيه فرق بين وزر الضلال ووزر الإضلال .
إذن .. هم ليسوا فاهمين .
ولذلك يقول سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها » . والذى يسن سنة سيئة ؟! يكون عليه وزرها ووزر من عمل بها ..
لماذا ؟ لأنه سن : أى : أصبحت قدوة منظورة وما دامت قدوة منظورة فى السيئة ؛ يكون هو الذى جعل [1] .
ولذلك : أمرنا بستر بعض الجرائم عندنا فى التشريع الإسلامى ، فإننا لا نتتبع الوزر حتى لا نشيعها ، لأننا عندما نشيعها تصبح أسوة . =

(١) روى ابن ماجه [٢٠٧] عَنْ أَبِى جحيفة رضى اللّه تعالى عنه ؛ قَالَ : قَالَ رَسُول اللّه صَلى اللّه عَلَيْهِ وَسَلمْ : « من سن سنة حسنة فعُمل بِهَا بعده ، كَانَ لَهُ أجره ومثل أجورهم من غَيْر أَن ينقص من أجورهم شيئا . ومن سن سنة سيئة ، فعُمل بِهَا بعده ، كَانَ عَلَيْهِ وزره ومثل أوزارهم من غَيْر أَن ينقص من أوزارهم شيئاً » . وقال الألباني : حسن صحيح .
وروى مسلم [١٠١٧/ ١٥] واللفظ له ، وابن ماجه [٢٠٣] والترمذى [٢٦٧٥] عن جرير رضى اللّه تعالى عنه جاء ناس من الأعراب إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ؛ عليهم الصوف ؛ فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة . فحث الناس على الصدقة ؛ فأبطأوا عنه ؛ حتى رؤى ذلك فى وجهه . قال : ثم إن رجلا من الأنصار جاء بصرة من ورق . ثم جاء آخر . ثم تتابعوا حتى عرف السرور فى وجهه . فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، فعمل بها بعده ، كتب له مثل أجر من عمل بها . ولا ينقص من أجورهم شيء . ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، فعمل بها بعده ، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شيء » .

obeikandl.com

= فهو يدرؤها ويقول لك : استر ، لا تُنقب على عيوب الناس[١] .
الذى يتبجح بجريمة هذه تكون مسألة أُخرى .
إذن .. حتى لا توجد الأُسوة .
إذن .. لو وجدت له الأُسوة يكون من الذى سنها وجعل الناس تتأسى به ؟
صاحب السيئة .
إذن .. فالمسألة مسألة منقوضة التى هى : البند الأول من كتابه الذى هو « سفر البرهان فى متناقضات القرآن » .

(١) روى الإمام أحمد فى المسند [٤/ ١٧٤] عن عقبة بن عامر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : من ستر مؤمنا كان كمن أحيا موءودة من قبرها . قال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف لسوء حفظ ابن لهيعة ، ولجهالة مولى عقبة بن عامر .
وروى الإمام أحمد فى المسند [٤/ ١٥٩] قال ابن جريج : ركب أبو أيوب إلى عقبة بن عامر رضى اللّه تعالى عنهما إلى مصر فقال : إنى سائلك عن أمر لم يبق ممن حضره مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا أنا وأنت كيف سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول فى ستر المؤمن ؟ فقال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : من ستر مؤمنا فى الدنيا على عورة ستره اللّه عز وجل يوم القيامة ، فرجع إلى المدينة فما حل رحله يحدث هذا الحديث . قال الشيخ شعيب الأرناؤوط : المرفوع منه صحيح لغيره ، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه ، فإن ابن جريج لم يدرك أحدا من الصحابة .
وفى الحديث المتفق عليه عند البخارى [٢٤٤٢] ومسلم [٥٨/٢٥٨٠] عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه تعالى عنهما أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان اللّه فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج اللّه عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره اللّه يوم القيامة .

obeikandi.com

البلد الميت

السؤال : ما معنى التسخير ، وما معنى : ﴿ سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

الجواب : التسخير معناه حمل الشيء على حركة مرادة منه لا اختيار له فيها ، واللَّه يسخر السحاب لأنه يريده أن يمطر هنا ، فيأتى مسخر الرياح فيسوقه إلى حيث يريد اللَّه ، وأنت قد تنتفع بمطر ينزل من سحابة فى غير مكانك ، ونحن مثلا ننتفع فى مصر بماء النيل برغم أن المطر ينزل فى جنوب السودان ، وفى هضاب الحبشة ، ولو اقتصرنا على الماء الذى ينزل من سماء مصر لكنا قد هلكنا عطشًا ، وهذا يؤكد معنى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [الأعراف : ٥٧] .

إن السحاب يسير مسخرًا إلى غاية مرادة له ولا إرادة له فيها . ويختتم الحق الآية بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٨] . أى : أنها عجائب لقوم يشكرون .

وحين يقول الحق : ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ فكأنه ينبه المَلَكَة المفكرة العاقلة فى الإنسان . وحين يخاطبك مخاطب ؛ وينبه فيك الملكة العاقلة ؛ فاعلم أن ما يخبر به ينتهى عقلك إليه بمجرد أن تفكر ، وإلا لو لم يكن الأمر كذلك ؛ ما كانت هناك ضرورة أن يذكر لك كلمة الشكر التى هي وليدة الملكة المفكرة العاقلة .

والقرآن الكريم دائمًا يقول : ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ ، و ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، و﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ و﴿ يَتَدَبَّرُونَ ﴾ و﴿ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ وكل ذلك معناه : أنهم لو شكروا ، ولو فكروا ، ولو عقلوا ، ولو تدبروا ، ولو تذكروا ؛ لانتهوا إلى

الحقيقة التى يريدها اللَّه . والحق سبحانه وتعالى ينبه المسلم دائمًا لأن يستقبل الأمور بشكره وبعقله وبفكره وبتدبره وبتذكره ؛ لأنه سبحانه يعلم أن الإنسان إذا شكر أو فكر أو عقل أو تذكر أو تدبر فسوف ينتهى إلى ذات القضية .

obeikandl.com

أسماء اللَّه الحسنى

السؤال : لقد سمى اللَّه نفسه بأسماء سماها فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ . فلماذا أطلق عليها الحق سبحانه ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ولم يقل وللَّه الأسماء الجميلة أو الكريمة أو ما شابه ذلك ؟

الجواب : كلمة حسنى أفعل تفضيل مثل كبرى ، فهي للمؤنث حسنى ولكن فى المذكر نقول أحسن ؛ فنقول : أسماء حسنى واسم أحسن . وذلك لأن الأسماء عند البشر قد لا تنطبق على المسمى الذى اشتقت منه ، فقد تسمى إنسانًا سعيدًا وهو شقى . وقد نسميه ذكيًا وهو غبى .

إذن . . حسن الاسم أن يكون المسمى فيه الوصف الصحيح .

فإذا كان الولد الذى سميناه ذكيًا : ذكيًا حقا فاسمه هذا حسن . ولكنه لن يأخذ مرتبة الحسن الأعلى . فالحسن الأعلى يسميه اللَّه لنفسه لأن هذا هو الكمال المطلق وهذا معنى الأسماء الحسنى .

ونحن قلنا سابقًا : إن الاسم الذى هو علم على واجب الوجود هو : « اللَّه » .

وبعد ذلك جاءت صفات غلبت عليه بحيث إذا أطلقت لا تنصرف إلا إليه .

فإذا قلنا العزيز على إطلاقه فهو اللَّه . إنما قد تقول فلان العزيز فى قومه ، أو فلان الرحيم بمن يرعاه ، أو فلان النافع لمن يتصل به . إنما إذا قلت : النافع على إطلاقه ، فهو اللَّه .

إذن . . فالعلم على واجب الوجود هو : « اللَّه » . وبعد ذلك هناك صفات للَّه صارت أسماءً لأنها إذا أطلقت لا تنصرف إلا إليه فأصبحت كأنها أسماء مع أنها فى الأصل صفات .

وإذا نظرنا إلى أسماء اللَّه الحسنى نجدها قسمين : أسماء للذات وأسماء للصفات . فمثلاً اسم الذات لا يتصف اللَّه بمقابله . واسم الفعل يتصف اللَّه بمقابله .

فمثلاً نحن نقول عن اللَّه إنه المعز . والمعز هو الذى يعز غيره ، فهذه صفة فعل ، وما دام يعز الغير فلابد أن يذل . وكذلك اسم الضار لابد من مقابل له وهو النافع .

لكن من أسماء الذات العزيز مثلاً ، فهذا لا يتصف اللَّه بمقابله لأنه اسم ذات . واسم الذات يطلق على اللَّه تعالى ولا يأتى ضده . لكن فى اسم الفعل يأتى ضده مثل المحيى مقابلها المميت ، لكن اسم الذات غير ذلك فمثلاً الحى اسم ذات لا يجوز أن آتى بمقابله وأطلقه على اللَّه تعالى .

فإذا رأيت اسمًا له مقابل فاعلم أنه اسم فعل أو صفة فعل فى الغير .

أما إذا لم نجد له مقابلاً فاعلم أنه صفة ذات للَّه تعالى .

فالأولى مثل : الضار ، النافع ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المحيى ، المميت ، المعز ، المذل .

بينما أسماء الذات مثل الستار فلم يأت بمقابلها « الفضاح » لماذا ؟

لأنه سبحانه يريد أن يتخلق خلقه بصفات هذا الاسم ، لأنه يريد أن يربب النفع بالناس للناس . فأنت لو عرفت عن إنسان فضيحة أو نقيصة تكره كل ما جاء منه ولو كان حسنًا . فأنت بذلك حرمت نفسك صفات الحسن عند هذا الإنسان لأنك عرفت صفة سوء . لكن لو سُتِرَت عنك تستفيد أنت بصفات الحسن فى هذا الإنسان ولا تحرم نفسك إياها .

ولذلك فاللَّه تعالى يكره المعصية ويحب أن يستر على العاصى حتى يستمر دولاب الحياة[1] . فسبحان من ستر غيب خلقه عن خلقه .

---

(١) روى البخارى [٢٤٤٢] ومسلم [٢٨٥٠/٥٨] عن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه . من كان فى حاجة أخيه ، كان اللَّه فى حاجته . ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج اللَّه عنه بها كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلما ، ستره اللَّه يوم القيامة .

فهذه لها حكمة فى استمرار الحياة والتعامل بين الناس ، لأننى لو عرفت ما عندك وعرفت أنت ما عندى سنتقاطع ، إنما لأن اللّه يسترنا تستمر المنفعة بيننا .

ولذلك يقولون : لو تكاشفتم ما تدافنتم[١] . أى : إن الإنسان يرى الميت فلا يدفنه . لأنه يعلم عن مساوئه الكثير .

إذن . . فأسماء اللّه الحسنى إما أن تكون علمًا مطلقًا على الذات وهو « اللّه » .

وكلمة : « اللّه » أعطتنا كل صفات الكمال فى اللّه تعالى . و « القادر » فيه : قدرة ، و « الحكيم » فيه : حكمة و « العزيز » فيه : عزّة . . وهكذا .

فكل اسم أو صفة لها مجال ولكن اسم « اللّه » جامع لكل هذه الصفات .

ولذلك يقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر اللّه فهو أبتر »[٢] فأنت إذا أردت أن تفعل أي فعل فهذا الفعل يحتاج أولاً إلى حكمة فى فعله ، لماذا ستفعله ؟ ويحتاج إلى قدرة على إنجازه ، وإلى علم بمصيره .

فأنت تحتاج إلى صفات كثيرة حتى تقبل على هذا الفعل فتقول يا عليم يا قدير يا حكيم . فاللّه سبحانه وتعالى يريحك من ترديد كل هذه الصفات ويكفي أن تقول : باسم اللّه لأنه جامع لكل صفات الكمال .

وهنا سبحانه يقول : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ [الإسراء : ١١٠] .

لماذا اختار صفة الرحمن ؟ قالوا لأنها صفة التحنن للخلق . وإن كان

---

(١) هو من كلام الحسن البصري رضى اللّه تعالى عنه كما فى المجالسة للدينورى ، وغريب الحديث للهروى ؛ والفائق للزمخشرى ؛ ونهاية ابن الأثير ؛ قاله العجلوني فى كشف الخفاء . والمعنى : لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييع جنازته ودفنه ، كما فى النهاية لابن الأثير .

(٢) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٣٥٩] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه وقال الأرناؤوط : اسناده ضعيف .

obeikandl.com

من أسمائه تعالى الجبار والقهار والمنتقم ، إلا أن هذه الصفات هى من خدم صفة الرحمن ، لأنك حين تعرف أن اللّه قهار وأنك لن تستطيع أن تغلبه أو تهرب منه وأنك لو ظلمت سيعاقبك تمتنع عن الظلم . فهو بذلك رحمك من العذاب الذى سينالك بسبب ظلمك .

ولذلك يقولون : « القتل أنفى للقتل »[١] ، فالقاتل حين يوقن أنه سيقتل لا يمكن أن يقدم على هذه الجريمة . فاللّه تعالى يشرع القصاص ليمنع وقوع الجريمة أو يقلل من وقوعها .

والحق سبحانه اختار اسم الرحمن من دون غيره من الأسماء لأن مجال التكليف كله الرحمة . لأنه سبحانه نظم الكون بحركة الحياة ليسعد الناس مع بعضهم ويكونوا جميعًا على قلب رجل واحد . فحين ينهاك عن السرقة لا يحجر على حريتك لأنه حينما حرم عليك أن تسرق من غيرك حرم على ملايين الناس أن يسرقوا منك . وحين منعك الاعتداء على أعراض الناس ، منع الملايين الاعتداء على عرضك . فأنت المستفيد .

إذن . . فالحق سبحانه وتعالى يضع نظام الحياة حتى يسعد الناس فى حياتهم . ويفوزوا فى آخرتهم .

❁ ❁ ❁

(١) وأجود منه قول اللّه تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

سماع القرآن .. والمذاكرة

السؤال : أستمع إلى القرآن الكريم وأنا أذاكر دروسى ، فهل هذا جائز ؟

الجواب : إن مذاكرة العلم شىء مهم ترتقي به الأمم ويعلو شأنها ، ولكن على من يستمع إلى القرآن أن ينصت له ، لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] وعلى هذا ينبغى على السائل أن يجدَّ فى المذاكرة ؛ لأن المذاكرة كما قلنا شىء مهم يرفع من شأن الإنسان ، وبالإنسان ترتفع الأمة ويعلو ذكرها ، ثم بعد أن ينتهي من مذاكرة دروسه عليه أن يقرأ القرآن ويستمع إليه بإنصات وخشوع[١] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري فى التفسير : يقول تعالى ذكره للمؤمنين به المصدقين بكتابه الذين صار القرآن لهم هدى ورحمة : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ عليكم أيها المؤمنون ، ﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ ﴾ يقول : أصغوا له سمعكم لتتفهموا آياته وتعتبروا بمواعظه وأنصتوا إليه لتعقلوه وتتدبروه ، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ يقول : ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه ، واعتباركم بعبره ، واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه فى آيه .

obeikandl.com

معركة المؤمنين مع المنافقين

السؤال : لماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين ؟

الجواب : يقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ﴾ [النساء : ١٤١] ويتربص فلان بفلان ؛ أى : إن واحدًا يتحفز ليتحسس أخبار آخر ، ويرتب حاجته منه على قدر ما يرى من أخبار ، وعرفنا هذا المعنى من قول الحق : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة : ٥٢] .

يتربص المنافقون بالمؤمنين لأنهم إن وجدوا خيرًا قد أتى لهم فهم يريدون الاستفادة منه ، وإن جاء شر فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهرًا هم يعلنون الإيمان وهم فى باطنهم كفار . وهم يتربصون بالمؤمنين انتظارًا لما يحدث وليرتبوا أمورهم على ما يجىء .

وذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ فإن فتح اللَّه بنصره على المؤمنين فى معركة وأخذوا مغانم قال المنافقون : ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ ، فلابد لنا من سهم فى هذه الغنيمة . وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقًا لقول الحق : ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤١] .

هم يحاولون إذن الاستفادة من الكفار بقولهم : لقد تربصنا بالمؤمنين وانتظرنا ما يحدث لهم ، ولابد لنا من نصيب .

ويقول الحق على ألسنتهم : ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ واستحوذ على الشىء أى : حازه وجعله فى حيزه وملكه وسلطانه . والحق هو القائل : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة : ١٩] . أى : جعلهم الشيطان فى حيزه .

الرسول نفسه معجزة

السؤال : **يتردد فى القرآن كثيرًا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هو البشير النذير المبلغ عن ربه ، وأنه لا يستطيع الزيادة أو النقصان على الوحى ، وأنه ليس مسيطرًا على الناس ومن هنا درج السطحيون على إشاعة القول بأنه بشر مثلنا لا يزيد علينا ، ونحن نرى أن هذا السلوك يشكل معجزة فى شخص الرسول صلى اللّه عليه وسلم نفسه فكيف نقيم الحجة على هذه الدعوى ؟**

الجواب : الرسول صلى اللّه عليه وسلم فى ذاته معجزة هذا صحيح . . فعندما نطق الرسول صلى اللّه عليه وسلم بالقرآن المعجز لأصحاب المواهب البلاغية النادرة والقلوب الواعية . . قالوا : إن هذا القرآن ليس من عنده . . وهذا صحيح فليس من المعقول أن يكون عنده عبقرية فذة هكذا ، ثم يكتمها إلى ما بعد الأربعين . . ولذلك يعرض اللّه تعالى للمتشككين فيقول : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ﴾ [يونس : ١٥] .

فهكذا يقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنه ليس هو قائل هذا القرآن حتى يبدله . . ثم تمضى الآية الكريمة فتقول : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . [يونس : ١٦] .

إذن . . فرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يرفض أن ينسب الكمال إلى نفسه ، والناس بطبعها تدعى الكمال لنفسها ، وتنسب للنفس ما لم تفعله ، كل واحد منا يريد أن يثبت أنه عبقرى . . وأنه عالم . . وأنه فى فنه مسيطر . . وأنه لا يوجد من يفهم مشاكل الدنيا كلها إلا هو . . وهو فى

سبيل ذلك مستعد أن يسرق جهد غيره ، وينسبه إلى نفسه . . أي إن الطبيعة البشرية كلها تحاول أن تدعى الكمال ولو كذبًا . . ولكن الناس يريدون أن يعطوا الكمال لرسول اللَّه فينسبوا إليه أنه هو الذى قال هذا القرآن .

وبدلاً من أن ينساق رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وراء هذا الكمال الذى يحاولون أن يلصقوه به ، لا يزيد فى رده عليهم على ما أوحى اللَّه إليه به أن يرد فيقول : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم ﴾ . . ثم بعد ذلك يوحي إليه اللَّه بالدليل ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . أي إننى عشت معكم أربعين سنة قبل أن يوحى إلىَّ ، ولم أحاول حتى مجرد الدخول فى مزايدات البلاغة والخطابة والشعر . . ولم يشتهر عنى ذلك . . بل كنت أقول كلامًا عاديا .

فإذا كان هذا هو خلقى وطبعى كما تعرفون فيجب أن تعلموا أن الكلام الذى أعجزكم والذى أتلوه عليكم هو وحى من اللَّه ، وهو كلامه ، فلو كنت أحسن فن الكتابة والخطابة فربما ساوركم الشك . . ولكنى كنت أقول كلامًا عاديا ولا أسابقكم فى مضمار الخطابة ومن هنا كان الرسول صلى اللَّه عليه وسلم فى ذاته معجزة . . والدليل إسلام السيدة خديجة رضى اللَّه تعالى عنها ، وإسلام أبو بكر الصديق رضى اللَّه تعالى عنه ، وإسلام علي بن أبى طالب رضى اللَّه تعالى عنه وكل من أسلم قبل أن ينزل الوحي بالقرآن . أسلموا بمجرد أن قال صلى اللَّه عليه وسلم : أنا رسول اللَّه .

obeikandl.com

عمارة الكون

السـؤال : يصفُ اللَّه عز وجل الناجين يوم القيامة بأن من صفاتهم الإيمان والعمل الصالح ، فما مفهوم العمل الصالح ؟

الجـواب : الناس يظنون أن العمل الصالح هو أن تصلى وتصوم . . لكن اللَّه تعالى قال فى المنهج الأساس : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ ، ما معنى ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] ؟ معناها : أمركم أن تعمروها ، وما دام قد أمركم أن تعمروها فقد نفى قضية هي من باب أولى ، وهى : ألا تعمد إلى الصالح فى ذاته فتفسده . . لأن اللَّه أمرنا أن نعمر الأرض ، ونوجه طاقة الإيمان للترقى فيما يصلح المجتمع كله .

فمثلاً إذا وجدت نبعًا يشرب منه الناس ، فلا تفسد هذا النبع أو تطمره بالتراب ، هذا إذا لم تستطع أن تفكر بعقلك تفكيرًا يريح الناس من أن يتعبوا فى نقل الماء من ذلك النبع ، وأن تصنع خزانًا عاليًا ترفع إليه الماء ، وبعد ذلك تأتى عملية الاستطراق وتذهب المياه إلى الناس فى بيوتهم عن طريق الأنابيب فإذا صنعت ذلك تكون قد أصلحت بحق . . وعمرت الأرض بحق . . إذن فمعنى : ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ يظهر فى قضيتين :

١ - سلب الشر منك عن الشىء الصالح بذاته .

٢ - إيجاب الخير عليك فى أن ترقى صلاح الأمر الصالح . وهذا هو العمل الصالح . . لأن الفرائض فرائض لا خيار لأى أحد فى تركها[١] .

---

(١) ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أى : جعلكم عمارها وسكانها . قال مجاهد : ومعنى ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ أعمركم من قوله : أعمر فلان فلانا داره ؛ فهي له عمرى .
وقال قتادة : أسكنكم فيها ؛ وعلى هذين القولين تكون استفعل بمعنى أفعل ؛ مثل استجاب بمعنى أجاب . وقال الضحاك : أطال أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثلاثمائة إلى ألف . ابن عباس : « أعاشكم فيها » . زيد بن أسلم : أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن ، وغرس أشجار . وقيل : المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها .

خاصية الانتخاب فى النبات

السؤال : **خاصية الانتخاب هي الورقة التى يستغلها الهدامون ضد حقيقة التقدير الإلهى ، بمعنى أن الأشياء تنتخب بذاتها الشيء الأصلح لها ، ولا شيء غير ذلك . . فهل تعرض القرآن الكريم لإبطال هذه الفكرة ؟**

الجواب : نعم . . اقرأ قوله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤] .

علماء النبات حين تكلموا قالوا : إن النبات يأخذ غذاءه عن طريق الأنابيب الشعرية . . وهى أنابيب ضيقة جدا . . ولهذا فالسائل يرتفع فيها على طريقة أو نظرية الاستطراق .

سآتى بحوض وأضع فيه عددًا كبيرًا من العناصر ، وأذيبها فى الماء ، وبعد ذلك سأجيء ببعض الأنابيب الشعرية وأضعها فى الحوض ، وأنظر ماذا ستأخذ هذه الأنابيب ؟

ستأخذ السائل بكل خواصه الذائبة فيه . ولكن الآية الكريمة جاءت ، وجاء فيها ذكر الماء المذيب للعناصر ، ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾ . لأن الأنابيب فى الجذور الحقيقية تميز بين ما تريده وبين ما لا تريده . . أما فى الأنابيب الصناعية فإنها تأخذ السائل كله ، بما فيه من العناصر . لماذا ؟

لأن مَنْ صنَع الأنابيب الصناعية لم يهدها إلى ألا تأخذ إلا الذى تريده . . لكن الحق سبحانه وتعالى قدر فهدى . وبعد ذلك يقولون : الانتخاب !!

وعلى فرض أنه انتخاب . . أنتم قلتم : إنه الانتخاب الغذائى ، ومعناه

أنها تأخذ المختار ، وتدع غير المختار . . فمن الذى ألهمها هذه المسألة ؟ ونحن نعلم أنها ليس عندها فكر فى نظرنا نحن .

إذن . . فالذى يعمل هذه العملية هو أحذق وأذكى من الذى له فكر . . لأن الذى له فكر يمكن أن يكون ما يأخذه شيئًا ضارًا فيقول : أجرّبه ، إنما أنابيب النبات لا يمكن أن تأخذ إلا ما يصلح لها أبدًا .

تجىء لإنسان وقد شبع فتحلف عليه أن يأكل هذه فيأكلها . . وهذه فيأكلها أما الحيوان فلا يأكل بعدما يشبع أبدًا . . لأنه بما قدر اللّه له وهداه لا يتجاوز ما فيه صلاحه .

obeikandl.com

الأكل بالباطل .. وما ينفع الناس

السؤال : **ما معنى قوله تعالى :** ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد] . **وما معنى أكل الأموال بالباطل ؟**

الجواب : حين تأكل بالباطل فلن تستطيع أنت شخصياً أن تعفي غيرك مما أبحته لنفسك ، وسيأكل غيرك بالباطل أيضًا . وما دمت تأكل بالباطل وغيرك يأكل بالباطل ، هنا يصير الناس جميعًا نهبًا للناس جميعًا . لكن حين يُحكَم الإنسان بقضية الحق فأنت لا تأخذ إلا بالحق ، ويجب على الغير ألا يعطيك إلا بالحق ، وبذلك تخضع حركة الحياة كلها لقانون الحق الثابت الذى لا يتغير ، لماذا ؟ لأن الباطل قد يكون له علو ، لكن ليس له استقرار .

يقول اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

وساعة ترى مطرًا ينزل فى مسيلٍ أو وادٍ ، فأنت تجد هذا المطر قد كنس كل القش والقاذورات وجرفها فطفَتْ فوق الماء ولها رغوة ، وكذلك فأنت عندما تدخل الحديد فى النار تجده يسيل ويخرج منه الخبث ، ويطفو الخبث فوق السطح ، وهكذا نجد أن طفو الشىء وعلوه على السطح لا يعني أنه حق ، إنه سبحانه يعطينا من الأمور المُحسة ما نستطيع أن نميز من خلاله الأمور المعنوية ، وهكذا ترى أن الباطل قد يطفو ويعلو إلا أنه لا يدوم ، بل ينتهى ، والمثل العامى يقول : « يفور ويغور » .

إن اللَّه تعالى يريد أن تكون حركة حياتنا نظيفة شريفة ، حركة كريمة فلا يدخل فى بطنك إلا ما عرقت من أجله ، ويأخذ كل إنسان حقه .

وقبل أن يفكر الإنسان فى أن يأكل عليه أن يتحرك ليأكل ، لا أن ينتظر ثمرة حركة الآخرين . . لماذا ؟ لأن هذا الكسل يشيع الفوضى فى الحياة .

وحين نرى إنسانًا لا يعمل ويعيش فى راحة ويأكل من عمل غيره فإن هذا الإنسان يصبح مثلاً يحتذى به الآخرون فيقنع الناس جميعًا بالسكون عن الحركة ويعيشون عالة على الآخرين . ويترتب على ذلك توقف حركة الحياة ، وهذا باطل زائل ، وبه تنتهى ثمار حركة الحياة المتحركة ، وهنا يجوع الكل .

إن الحق سبحانه يريد للإنسان أن يتحرك ليشبع حاجته من طعام وشراب ومأوى ، وبذلك تستمر دورة الحياة . إنه سبحانه يريد أن يضمن لنا شرف الحركة فى الحياة ، بمعنى : أن تكون لك حركة فى كل شىء تنتفع به ؛ لأن حركتك لن يقتصر نفعها عليك ، ولكنها سلسلة متدافعة من الحركات المختلفة ، وحين تشيع أنت شرف الحركة فالكل سيتحرك نحو هذا الشرف ، لكن الباطل يتحقق بعكس ذلك ، فأنت حين تأكل من حركة الآخرين تشيع الفوضى فى الكون .

وعلى هذا فالحركة الحلال لا يكفي فيها أن تتحرك فقط ، ولكن يجب أن تنظر إلى شرف الحركة بألا تكون فى الباطل ، لأن الذى يسرق إنما يتحرك فى سرقته ، ولكن حركته فى غير شرف وهى حركة حرام .

إذن . . كل مسروق فى الوجود نتيجة حركة باطلة ، وكذلك الغصب ، والتدليس ، والغش ، وعدم الأمانة فى العمل ، والخيانة فى الوديعة ، وإنكار الأمانة ، كل ذلك باطل ، وكل حركة فى غير ما شرع اللَّه باطلة ، حتى المعونة على حركة فى غير ما شرع اللَّه ، كل ذلك باطل .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة : ١٨٨] . أى : إياكم أن تأكلوها بالباطل ثم تدلوا بها إلى الحكام ليبرروا لكم أن هذا الباطل هو حق لكم .

إذن . . هناك أناس كثيرون يرون فى فعل الحاكم مبررًا لأن يفعلوا مثله ، وهذا أمر خاطئ ؛ لأن كل إنسان مسئول عن حركته .

لا تقل إن الحاكم قد شرع أعمالاً وتُلقى عليه تبعة أفعالك .

إن الذين يشتغلون بعمل لا يقره اللّه فهم يأكلون أموالهم بالباطل ، ويُدخلون فى بطون أولادهم الأبرياء مالاً باطلاً ، وعلى الذين يأكلون من مثل هذه الأشياء أن يتنبهوا جيدًا إلى أن الذى يعولهم ، إنما أدخل عليهم أشياء من هذا الحرام والباطل ، وعليهم أن يتقوا ربهم وأن يقولوا : لا لن نأكل من هذا المصدر ؛ لأنه مصدر حرام وباطل ، ونحن قد خلقنا اللّه وهو سبحانه متكفل برزقنا .

وأنا أسمع كثيرًا ممن يقولون : إن هذه الأعمال الباطلة أصبحت مسائل حياة ، ترتبت الحياة عليها ولم نعد نستطيع الاستغناء عنها .

وأقول لهم : لا ، إن عليكم أن ترتبوا حياتكم من جديد على عمل حلال وإذا أصر واحد على أن يعمل عملاً غير حلال ليعول من هو تحته ، فعلى المعال أن يقف منه موقفًا يرده ، ويصر على ألا يأكل من باطل .

وتصوروا ماذا يحدث عندما يرفض ابن أن يأكل من عمل أمه إذا كان عملها حراما ، أو عمل والده إذا علم أنه يأكل بالباطل ؟ المسألة ستكون قاسية على الأب أو الأم نفسيهما .

Osekandi.com

المعصية .. لا تمنع الاستعانة بالله

السؤال : ما معنى قوله سبحانه : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ ؟

الجواب : يصف الله سبحانه وتعالى الإنسان فى القرآن الكريم : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا تمنعنا المعصية أن ندخل إلى كل عمل باسم الله .. فعلمنا أن نقول ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ لكي نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله . وأن المعصية لا تمنعنا الاستعانة فى كل عمل باسم الله .. لأنه : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية فى الاستعانة به سبحانه وتعالى .

ولكن ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فى الفاتحة مقترنة بـ : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ رب العالمين ، الذى أوجدك من عدم .. وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى . أنت تحمده على هذه النعم التى أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى فى ربوبيته ، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من الرحمة .

والله سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر ، فهو الذى استدعاهم جميعًا إلى الوجود . ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته ، وليس بما يستحقون ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، ولا تحجب أشعتها عن الكافر مثلا وتعطيها للمؤمن فقط ، والمطر ينزل على من يعبدون الله ، ومن يعبدون أوثانًا من دون الله . والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ، ومن لم يقلها .

وكل النعم التى هي من عطاء الربوبية لله هي فى الدنيا لخلقه جميعًا ، وهذه رحمة .. فالله رب الجميع من أطاعه ومن عصاه .. وهذه رحمة ، والله قابل للتوبة ، وهذه رحمة .

إذن . . ففى الفاتحة تأتى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بمعنى : رحمة اللَّه فى ربوبيته لخلقه ، فهو يمهل العاصى ويفتح أبواب التوبة لكل من يلجأ إليه .

وقد جعل اللَّه رحمته تسبق غضبه[١] . وهذه رحمة تستوجب الشكر . فمعنى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فى البسملة يختلف عنها فى الفاتحة . فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فاللَّه محمود لذاته ومحمود لصفاته ، ومحمود لنعمه ، ومحمود لرحمته ، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه ، اللَّه محمود قبل أن يخلق من يحمده . ومن رحمة اللَّه سبحانه وتعالى أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

والعجيب أنك حين تشكر بشرًا على جميل فعله تظل ساعات وساعات تعد كلمات الشكر والثناء ، وتحذف وتضيف وتأخذ رأى الناس ؛ حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب ملىء بالثناء والشكر ؛ ولكن اللَّه سبحانه وتعالى جلت قدرته وعظمته نعمه لا تعد ولا تحصى ، علمنا أن نشكره فى كلمتين اثنتين هما : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾

ولعلنا نفهم أن المبالغة فى الشكر للبشر مكروهة لأنها تصيب الإنسان بالغرور والنفاق وتزيد العاصى فى معاصيه . . فلنقلل من الشكر والثناء للبشر لأننا نشكر اللَّه لعظيم نعمه علينا بكلمتين هما : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، ومن رحمة اللَّه سبحانه وتعالى أنه علمنا صيغة الحمد . فلو أنه تركها بدون أن يحددها بكلمتين . . لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا اللَّه على هذا الكمال الإلهى . . فمهما أوتى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير . . فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم . . فكيف نحمد اللَّه والعقل عاجز أن يدرك قدرته ، أو أن يُحصى نعمه أو أن يحيط برحمته ؟ ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أعطانا

---

(١) روى البخارى [٧٥٥٤] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال ؛ سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول : « إن اللَّه كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق ؛ إن رحمتى سبقت غضبى ؛ فهو مكتوب عنده فوق العرش .

صورة العجز البشرى عن حمد كمال الألوهية للّه ، فقال : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[١] .

وكلمتا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، ساوى اللّه بهما بين البشر جميعًا ، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد ، لتفاوتت درجات الحمد بين الناس بتفاوت قدراتهم على التعبير . فهذا أمى لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع أن يجد الكلمات التى يحمد بها اللّه . وهذا عالم له قدرة على التعبير يستطيع أن يأتى بصيغة الحمد بما أوتى من علم وبلاغة . وهكذا تتفاوت درجات البشر فى الحمد . طبقًا لقدراتهم فى منازل الدنيا .

ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أن يسوى بين عباده جميعًا فى صيغة الحمد له . . فيعلمنا فى أولى كلماته فى القرآن الكريم . . أن نقول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ليعطى الفرصة المتساوية لكل عبيده بحيث يستوى المتعلم وغير المتعلم فى عطاء الحمد ، من أوتى البلاغة ومن لا يحسن الكلام .

ولذلك فإننا نحمد اللّه سبحانه وتعالى على أنه علمنا كيف نحمده ، وليظل العبد دائمًا حامدًا . ويظل اللّه دائمًا محمودًا . . فاللّه سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم ، فخلق لنا السموات والأرض وأوجد لنا الماء والهواء . ووضع فى الأرض أقواتها إلى يوم القيامة . . وهذه نعمة يستحق سبحانه الحمد عليها لأنه جل جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الإنسانى ، فعندما خلق الإنسان كانت النعمة موجودة تستقبله . بل إن اللّه جعله لا يتعب ولا يشقى . . فقد خُلِق فوجد ما يأكله وما يشربه وما يقيم حياته وما يتمتع به موجودًا وجاهزًا ومعدا قبل الخلق . . وحينما نزل آدم وحواء إلى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما . فوجدا ما يأكلانه وما يشربانه ، وما يقيم حياتهما . . ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنسانى وخلقت بعده لهلك الإنسان وهو ينتظر مجىء النعمة .

بل إن العطاء الإلهى للإنسان يعطيه النعمة بمجرد أن يُخلق فى رحم أمه فيجد رحمًا مستعدا لاستقباله وغذاء يكفيه طول مدة الحمل . فإذا خرج إلى

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٤٨٦/ ٢٢٢] عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها .

الدنيا يضع اللَّه فى صدر أمه لبنًا ينزل وقت أن يجوع ويمتنع وقت أن يشبع . وينتهى تمامًا عندما تتوقف فترة الرضاعة . ويجد أباً وأما يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع أن يعول نفسه . . وكل هذا يحدث قبل أن يصل الإنسان إلى مرحلة التكليف وقبل أن يستطيع أن ينطق : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

وهكذا نرى أن النعمة تسبق الْمُنْعَمَ عليه دائمًا . . فالإنسان حين يقول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فلأن موجبات الحمد - وهى النعمة - موجودة فى الكون قبل الوجود الإنسانى .

واللَّه سبحانه وتعالى خلق لنا فى هذا الكون أشياء تعطى الإنسان بغير قدرة منه وبدون خضوع له ، والإنسان عاجز عن أن يقدم لنفسه هذه النعم التى يقدمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد . فالشمس تعطى الدفء والحياة للأرض بلا مقابل وبلا فعل من البشر ، والمطر ينزل من السماء من دون أن يكون لك جهد فيه أو قدرة على إنزاله . والهواء موجود حولك فى كل مكان تتنفس منه من دون جهد منك ولا قدرة . والأرض تعطيك الثمر بمجرد أن تبذر فيها الحب وتسقيه . فالزرع ينبت بقدرة اللَّه . والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أن تنام لترتاح ، وأن تسعى لحياتك . . لا أنت أتيت بضوء النهار . . ولا أنت الذى صنعت ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ الراحة فى الليل والعمل فى النهار بقدرة اللَّه من دون أن تفعل شيئًا .

كل هذه الأشياء لم يخلقها الإنسان ، ولكنه خلق ليجدها فى الكون تعطيه بلا مقابل ولا جهد منه . ألا تستحق أن نقول الحمد للَّه على نعمة تسخير الكون لخدمة الإنسان ؟ إنها تقتضى وجوب الحمد .

وآيات اللَّه سبحانه وتعالى فى كونه تستوجب الحمد . . فالحياة التى وهبها اللَّه لنا ، والآيات التى أودعها فى كونه لتدلنا على أن لهذا الكون خالقًا عظيمًا . فالكون بشمسه وقمره ونجومه وأرضه وكل ما فيه مما يفوق قدرة الإنسان . . لا يستطيع أحد أن يدَّعيه لنفسه . . فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدَّعىَ أنه خلق الشمس ، أو أَوْجد النجوم ، أو وضع الأرض ، أو وضع قوانين الكون ، أو أعطى الأرض غلافها الجوى ، أو خلق نفسه ، أو خلق غيره .

هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى .. هي التى أوجدت وهى التى خلقت .. وهذه الآيات ليست ساكنة ، لتجعلنا فى سكونها ننساها ، بل هي متحركة لتلفتنا إلى خالق هذا الكون العظيم .

فالشمس تشرق فى الصباح فتذكرنا بإعجاز الخلق ، وتغيب فى المساء لتذكرنَا بعظمة الخالق .. وتعاقب الليل والنهار يحدث أمامنا كل يوم علنًا نلتفت ونفيق . والمطر ينزل من السماء ليذكرنا بألوهية مَنْ أنزله .. والزرع يخرج من الأرض يسقى بماء واحد . ومع ذلك فإن كل نوع له لون وله شكل وله مذاق وله رائحة .. وله تكوين يختلف عن الآخر ، ويأتى الحصاد فيختفي الثمر والزرع .. ويأتى موسم الزراعة فيعود من جديد .

كل شيء فى هذا الكون متحرك ليذكرنا إذا نسينا . ويعلمنا أن هناك خالقًا عظيمًا .

ونستطيع أن نمضى فى ذلك بلا نهاية فنعم اللّه لا تعد ولا تحصى .. وكل واحدة منها تدلنا على وجود الحق سبحانه وتعالى وتعطينا الدليل الإيمانى على أن لهذا الكون خالقًا مبدعًا .. وأنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الكون أو خلق ما فيه .. فالقضية محسومة للّه .. و ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ لأنه وضع فى نفوسنا الإيمان الفطرى ثم أيده بإيمان عقلى بآياته فى كونه .

بل إن كل شيء فى هذا الكون يقتضى الحمد ، ومع ذلك فإن الإنسان يمتدح الموجود وينسى الواجد سبحانه !! أنت حين ترى جوهرة جميلة مثلاً أو زهرة غاية فى الإبداع .. أو أي خلق من خلق اللّه يشيع فى نفسك الجمال تمتدح هذا الخلق .. فتقول ما أجمل هذه الزهرة !! أو هذه الجوهرة أو هذا المخلوق ، ولكن المخلوق الذى امتدحته ، لم يعط صفة الجمال لنفسه ، فالزهرة لا دخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة ، والجوهرة لا دخل لها فى عظمة خلقها .. وكل شيء فى هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه وإنما الذى وضع الجمال فيه هو اللّه سبحانه وتعالى ، فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق بل قل الحمد للّه الذى أوجد فى الكون ما يذكرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق .

ومنهج اللَّه سبحانه وتعالى يقتضى منا الحمد . . لأن اللَّه أنزل منهجه ليرينا طريق الخير ويبعدنا عن طريق الشر .

إذن . . فشريعة الحق وقول الحق ، وقضاء الحق ، هو من اللَّه ، أما تشريعات الناس فلها هوى يميز بعضًا عن بعض . . ويأخذ حقوق بعض ليعطيها الآخرين ، لذلك نجد فى كل منهج بشرى ظلمًا بشريا .

فالدول الشيوعية أعضاء اللجنة المركزية فيها هم أصحاب النعمة والترف . بينما الشعب كله فى شقاء . . لأن هؤلاء الذين شرعوا اتبعوا هواهم . ووضعوا مصالحهم فوق كل مصلحة .

وكذلك فى الدول الرأسمالية . أصحاب رأس المال يأخذون كل الخير . ولكن اللَّه سبحانه وتعالى حين نزل لنا المنهج قضى بالعدل بين الناس ، وأعطى كل ذى حق حقه . وعلمنا كيف تستقيم الحياة على الأرض عندما تكون بعيدة عن الهوى البشري خاضعة لعدل اللَّه ، وهذا يوجب الحمد .

والحق سبحانه وتعالى ، يستحق منا الحمد لأنه لا يأخذ منا ولكنه يعطينا . فالبشر فى كل عصر يحاولون استغلال البشر . . لأنهم يطمحون إلى ما فى أيديهم من ثروات وأموال ، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى ما فى أيدينا ، إنه يعطينا ولا يأخذ منا ، عنده خزائن كل شىء مصداقًا لقوله جل جلاله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر : ٢١] .

فاللَّه سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه ، والخلق يأخذون دائمًا من نعم اللَّه ، فكأن العبودية للَّه تعطيك ولا تأخذ منك وهذا يستوجب الحمد .

واللَّه سبحانه وتعالى فى عطائه يحب أن يطلب إليه الإنسان ، وأن يدعوه وأن يستعين به ، وهذا يوجب الحمد لأنه يقينا الذل فى الدنيا . فأنت إن طلبت شيئًا إلى صاحب نفوذ ، فلابد أن يحدد لك موعدًا أو وقت الحديث ومدة المقابلة وقد يضيق بك فيقف لينهى اللقاء . . ولكن اللَّه سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائمًا . . فأنت بين يديه عندما تريد وترفع يديك إلى السماء وتدعو وقتما تحب وتسأل اللَّه ما تشاء فيعطيك ما تريده إن كان خيرًا لك . . ويمنع عنك إن كان شرا لك .

ما مفهوم النعمة والنعم

السؤال : نحن نجد الحق سبحانه فى القرآن الكريم يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ فلماذا يقول : « نعمة » بالمفرد ولم يقلها بصيغة الجمع « نعم » ؟

الجواب : الحق سبحانه وتعالى حينما يعدد النعم على خلقه يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٨] .

لماذا ؟ لأن عد الشىء مظنة إحصائه إنما الذى لا تستطيع أن تحصيه لا تقبل على عده ، ولذلك جامعات العالم المتخصصة فى الإحصاء لم تقبل أي منها على إحصاء ما فى الكون من النعم ، لأنها لا تعد ، والدليل على أنها لا تعد أن المفرد فيها أنت عاجز عن عد ما فيه من نعم ، ولذلك لم يقل اللَّه « وإن تعدوا نعم اللَّه » ولكن قال : « نعمة اللَّه » بصيغة المفرد . لأن هذه النعمة الواحدة مستور فيها ما لا يدرك من النعم . فإذا كانت النعمة الواحدة مستور فيها ما لا يدرك من النعم ، فما بالك بباقى النعم .

وقول اللَّه تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ورد فى القرآن مرتين ، وإن اختلفت فى التذييل ، فإحداها تقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

والثانية تقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(١)] [النحل : ١٨] .

---

(١) قال السيوطي فى الحاوي فى الفتاوى : مسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ هل المراد بها جنس النعمة أو النعمة الواحدة .

الجواب : أكثر المفسرين على أن المراد بها الجنس وممن جزم به من أهل التدقيق الراغب فى مفرداته ومحمود بن حمزة الكرماني فى غرائبه ، وقيل المراد أن النعمة الواحدة لو عد ما يتشعب عنها من النعم لم يحص ، وهذا أدق معنى والأول أوفق لمراد الألفاظ وموارد اللغة .